



العريضة والـ

بقلم:
أحمد إسماعيل عبدالكريم
مصر

صاح الممرض في الغرفة الخاصة بالمرضى المنتظرين توقيع الكشف:

.. رقم سبعة... رقم سبعة من؟
همست امرأة عجوز لشاب يجلس بجوارها.
كم الساعة في يدك يا بني؟
الساعة؟ الساعة العاشرة ونصف وخمس دقائق.

رددت المرأة بينها وبين نفسها متممة بصوت لا يكاد يسمعه من بجوارها.. ست تذاكر فقط دخلوا.. إذن متى نرحل نحن من هنا؟ وتري متى يوقع الطبيب علينا الكشف؟ بل متى يأتي دورنا؟! ولما لم يجد الممرض الرقم «سبعة»، وتذكر أنه لم يحضر اليوم، لأنه حجز البارحة وغادر، هم أن ينطلق لسانه ويطلب الرقم التالي، الرقم «ثمانية» همس إليه الشاب الذي يجلس بجوار المرأة العجوز قائلاً:

- أدخل هذه المرأة بدل صاحب رقم «سبعة» يبدو أنها في عجل، لعلها تسكن في مكان ناء، وهذا الرقم الذي حجزته ربما يضطرها أن تمكث للفترة المسائية، استجاب الممرض لطلب الشاب الذي كان يحمل رقم «ثمانية» كاد قلب المرأة أن يثب من الفرحه، وبعد أن فقدت الأمل في توقيع الكشف في هذه الفترة اليوم.

دخلت المرأة حجرة الطبيب لتوقيع الكشف، ومعها وليدها الذي لم يتعد الثانية عشرة من عمره، جلست على الكرسي، استسلمت للطبيب وأجهزته الخاصة بها الحجرة، وسلمت أمرها لصاحب الأمر، فيما تزداد دقات قلبها، تزداد هوة الهلع اتساعاً خشية أن يكتب لها الطبيب العديد من الأدوية والمراهم والقطرات التي تعجز عن تدبير أثمانها، فيصعب عليها شراؤها، أو تؤدي إلى تفرغ محتويات حصيدتها نقودها وتصرف كل ما لديها، ولا يتبقى حتى أجرة المواصلات.

وقع الطبيب عليها الكشف، تأوه، وضج، وتنهّد ساحياً نفساً عميقاً باتساع الحجرة، أخذ يوجه إليها اللوم وكثيراً من التأنيب:
- عيب كبير فينا أننا لا نهتم بأعضاء جسمنا حتى الأجزاء الأكثر حساسية منها، ولا نكلف أنفسنا حتى استشارة الطبيب، إنها العيون أغلى شيء، فنتركها لغاية هذه الدرجة التي تنذر بالخطر.

وظفق الطبيب يرفع صوته في المريضة، يوسعها لوماً وتأنيباً، لكن المرأة لم تعبأ بزعيقه ولم تأبه بتأنيبه، كل ما يدور بخلدّها، وتدعو الله ضارعة، في نفسها ألا يكتب لها الطبيب أدوية غالية الثمن تعجز عن شرائها، فيما يردد الطبيب من أن لآخر، وعيينا ألا نستشير الأطباء إلا في النهاية، «لما تقع الفاس في الرأس» وأبدى الطبيب غضبه إزاءها وألقى عليها تبعه ما حدث لعينها، كرر عليها سؤاله الذي كان من واجبه أن يلقيه إلى الحياة والمجتمع.

- أمّا! لماذا لم تستشيري طبيباً طوال هذه المدة؟

لم تجد المرأة العجوز إجابة لسؤال الطبيب، واكتفت بالنظر إليه بعينين زائفتين، تملكهما شرود طويل، وابتلعت لسانها، أوقفت وظيفته إلى حين تتركه إلى سؤال آخر أقل مرارة منه، ثم ماذا تقول؟! أتقول إنها تختصر الطريق، وتذهب إلى الصيدلية مباشرة لتوفر أتعاب الطبيب لتسد به رقفاً في خضم الحياة، ركن

في أمس الحاجة إليه، أقول له: إنها لا تكاد تكفي الضروريات، فيظن أنها تستدر عطفه، أو تستجديه المساعدة أو تطلب منه العون، لكنها اكتفت أن أطرقت إطراق الحيي الخجول، ولم تلفظ ببنت شفة، تحملت التأنيب، وما أخفته في صدرها كان أعظم مرارة وأشدّ ألماً من أن يدركه الطبيب.
جلس الطبيب، تناول قلمه، أجراه على الورقة، تنثال منه الكلمات، لتكتمل التذكرة، دون اسمها في مذكرته الخاصة، قال لها قبل أن تخرج:

- أعدني نفسك لإجراء عملية يوم واحد وعشرين من هذا الشهر، يعني قدامك أسبوعان، وأرجو أن تلتزمي بهذه المواعيد المحددة لتناول العلاج.

خرجت المرأة على وقع كلمات الطبيب تنقر أذنيها: أسبوعان، واحد وعشرين عملية، كلام فارغ لم تصدقه، لم تأبه به، فهي لا تثق في الأطباء أبداً، ولا تبالي بكلامهم، هتف في داخلها هاتف:

- اتركي كلام الأطباء، إياك أن تصدقي، إنهم جزارون، يستحلون العيث في أعضاء البشرية، ويستبيحون ابتزاز أموال الخلائق، يستنزفون أموال المرضى.. لو لم يقوموا بايهاام الناس بالعمليات فكيف يحققون آمالهم العريضة إذا؟! إنهم يبنونها على أكتاف المرضى، كيف يتحقق لهم ذلك إن لم يضحكوا على الأغبياء من أمثالي، العديد من الأفكار والآراء قد خطرت ببالها، وهي في طريقها إلى موقف السيارات، حيث تستقل أي سيارة تجدها



طبيب

لنقلها إلى البلدة، وما أن تخطر لها خاطرة حتى تتحاشاها من حسبانها وتلقي بها جانباً.

وأخيراً وصلت إلى بر القرار، وسلمت الأمر كله، وبعد أن تجيء المدة وينتهي العلاج يحلها الحال!!

وتحت ظل شجرة قديمة متهالكة، جلست بعد أن أجهدها السير، وأضناها المشوار الطويل، ألهمها الله أن تثوب إلى رشدنا وتخلص من الوسواس والأوهام، امتدت يدها لتحسس حلقها، وكأنها تشعر به لأول مرة، تفاعلت، علت وجهها المتغضن ابتسامة عريضة، ربت على كتف ابنها، أخرجت له من جيبيها «صورة» وفكتها وأعطته منها قيمة نقدية لبيتاع من ذلك البائع الجوال الذي ينادي لسلعته ويحمل «قفة» كبيرة يتوء بحملها.

لم يكن الولد قد تناول شيئاً مما اشتراه بعد، فقد استهوى فؤاده هذا البائع الجوال، أخذت عقله مهنته، سرح بعيداً، ماذا يفعل ليصبح كهذا البائع؟! لابد أنه يكسب كثيراً، راودته أحلام أن يصبح مثله، وعندئذ يكون لأمه الركيزة التي تستند عليها ويشاطرهما المسؤولية، بنى أحلاماً كبيرة وجنح بخيالاته وهو واقف مكانه، لم يفتح «القرطاس» أو يعرف ما يحويه، لكن أمه تأمره أن يتناول ما اشتراه، اصطدم صوتها بخيالاته وقطع حبل أفكاره، وهي تقول:

— كل بسرعة عسانا نجد سيارة قبل أن نتأخر.

عمى الأفكار يعاودها يدور بها، تباغتتها الكلمات مرة أخرى، واحد وعشرون، أمامك أسبوعان، الحلق، يناوشها التردد، يعتصرها الألم، يحتويها، يمزقها إرباً إرباً، يردبها، تنهزم أمامه أحياناً، وتنتصر عليه مرات، قالت بتحد:

— سابعه لأنفذ حياتي، وأصل بابني إلى بر الحياة، حتى يستطيع الوقوف على قدميه، ويصلب عوده، من له غيري؟!

ويبقى مالي من بعد حالي كما يقولون، لكن «الحلق» كل ما تدخره، ستتركه للحاجة، للعوذ، لكن هل هناك حاجة ملحة، أو ضرورة بعد الصحة؟! هل ثمة شيء أهم من عينيها؟!

تمر الأيام وتتعاقب، ويزداد الخوف، وتتسع الحيرة، ويضحي الأمر أكثر جدية، وقفت أمام ابنها قبل موعد إجراء العملية بيوم، وقالت وتكاد تفضحها العبرات:

— قم يا ابني، هيا معي نذهب إلى البلد، لم يسألها عن سبب الذهاب المفاجئ إلى البلد، أخبرته — بعد تردد — سنبيع الحلق. وقالت له لتعلن عن عدم رضاها، وكأنها تبدي اعتذاراً، عجز أن يسألها عنه:

— نعم إنه حلق كبير غال عليّ، وهو كل ما لدينا، لكن ظروفنا!! وما باليد حيلة، كنت أود أن أحتفظ به للحاجة والعوذ، والموت يعوز والحياة تعوز.

قال لها ولدها ليخفف عنها ألم التفريط في هذا الحلق. — أهم شيء عندي يا أمي أن تخف آلام عينيك وتشفي بإذن الله، لأنني ليس لدي في الدنيا سواك.

أخرج «الصائغ» فردتي الحلق من أذني المرأة بسرعة فائقة وكأنه ثعلب رايبض يترصد فريسة، وراودته الفرصة وقد فاز بصيد ثمين، ويخشى أن يهرب منه، ألقى بهما في ميزانه الحساس، وزنهما، أنقذ المرأة العجوز الثمن، تناولت المبلغ، دسته في «صرتها» المتهالكة التي تضع فيها نقودها، رجعت وهي أشد ألماً وحزناً كأنها فارقت عزيزاً عليها، ولم لا؟! وهي عشرة عمر وقطعة من جسدها!!

وفي ليلة اليوم المنتظر يوم واحد وعشرين من الشهر، شرعت تجهز كل مستلزماتها، ومتطلباتها في حال إجراء العملية.. دخلت حجرة الطبيب، أمر الممرض بدخولها غرفة العمليات إلى أن ينتهي من توقيع الكشف على الحالات المرضية، جاء وقت إجراء العملية، وقبل أن يشرع الطبيب في الإعداد، لفت انتباهه عدم وجود الحلق الطويل الذي رآه يتدلى من أذنيها، وكان ظاهراً واضحاً عند ما جاءت إليه لإجراء الكشف في المرة الأولى، فانهالت عليه الاحتمالات، فلم يجد أمامه إلا احتمالاً واحداً، أسفقت به ذاكرته، استدرك على الفور، وفهم لماذا هي باعت هذا الحلق الطويل «الموضة القديمة» الذي يشبه الحلق الذي كانت تلبسه المرحومة والدته، وهو يعلم أن مثلها لا يمكن أن تفرط في حلق مثل هذا إلا للضرورة القصوى، إلا لشدة الحاجة، ولا سيما النسوة المسنات، لا يفرطن في أشياءهن إلا أن يكون ثم أمر عصيب قد اضطرتن إليه الظروف القاسية.

وقام الطبيب بإجراء العملية وشفيت المرأة تماماً، قدم لها لفافة هدية، لم تشأ أن تتناولها بيد أنه ربت على يدها، ووضعها فيها، تناولتها على استحياء، أنزلها في صحنه عبر درجات السلم، أخذها بسيارته، أوصلها إلى منزلها ودعها وخرج.

فتحت المرأة «اللفافة»، فوجئت بحلقها نفسه المعروف بخيطه الأحمر و«الخرزة» الوردية، وبصحبته مبلغ من المال يزيد على ألف جنيه، ارتعدت فرائسها، كفكت عيناها الدمع، وامتدت يداها إلى السماء تتضرع إلى من رفعها بلا عمد أن يجعل لهذا الطبيب من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً.